قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاءِ الجزيرة كلِّها بين حاضرةٍ وباديةٍ، ومن قديم عصورها إلى حديثها.

لأنَّها كانت وسطًا بين الحضارة والبداوة، وكانت تقيم في عاصمة الحجاز وإلى جوار الكعبة التي يحج إليها العرب، تبركًا بحرمتها ولياذًا بأصنامها. ويحملون إلى أسواقها أزوادَ العرب والشعر والحكمة، كما يحملون إليها أزواد القوت وسلع التجارة.

وكانت قريش تنتقل إلى بلاد العرب كما ينتقل العرب إليها من بلادهم، فكان لها رحلتان في الشتاء والصيف: أحدهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام، وكانت تضيف إلى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس، حيثما نزلت في طريقها من ديار العرب أو من ديار الروم والحبشة، وسائر الأمم الأعجميَّة كما كانت تسمِّيها.

والعرب من دأبهم حفظُ السِّيَر وروايةُ الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايا؛ لأنَّ الاستطلاع من طبيعة سكان الصحارى، وتتوقَّف سلامتهم أحيانًا على خبر يعلمونه في أوانهِ كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارئ داهم تفوقهم الحيطة له في حِينهِ، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسِّير والأخبار لغير هذه الضرورة التي يدعو إليها حبُّ الأمن والسلامة، فهم غيورُون على تراث الآباء والأجداد تفاخرًا بالنسب العريق وتصحيحًا للعلاقات وتمييزًا للأقربين والبعداء.

ومع هذا الولع الأصيل في الطبيعة العربية باستقصاء الخبر، يصعب على الذهن أن يتخيَّل أنَّ قريشًا تجهل شأنًا من شؤون الثقافة العربية، وهى تقيم في مثابةِ الجزيرة كلِّها وتسهر على عاصمة العرب، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله إلى جنوبه ومن جنوبه إلى شماله، وتابع العصور حقبة بعد حقبة وهى في مرقبها الذي تطلُّ منه على كلِّ ما يعنيها.

فقلَّما غاب عنها علم عربيٌّ وصل إليه أبناء الحواضر والبوادي باجتهادهم واختبارهم، أو وصلوا إليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية.

وقلما خفي عنها فنٌّ من فنون ثقافة العرب في مصالح السلم والحرب، أو معارض السياسة والشئون الاجتماعية

ونظنُّ أن خطأ المؤرخين في تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم في تقدير معارفهم الحربية، وقد كانت كما رأينا كفؤا لحضارة الدول الفارسية وتجارب قوَّادها وكساورتها.

وكذلك كانت لهم في السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ إلى بواطنها، فهي لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية، ولكنها كذلك لا تنزل إلى الفوضى ولا إلى الغريزة الهمجية التي لا مساك لها ولا تدبير فيها.

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قطّ نظامًا من أنظمة الحكم إلا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم وخلائقهم.

عرفوا نظام الإمارة التي ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه.

وعرفوا نظام الإمارة التي يتولَّى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل في قضايا الرعية بمعونة ذوى الرأي منها "إلَّا أن يكون غزو أو قتال" فهم باسم الملك دون غيره، وهو النظام الذي جرى عليه أهل الحيرة زمنًا مع ملكهم المنذر ونائبِهِ زيد بن حماد من بني أيوب.

وعرفوا نظام الإمارة التي يختار أميرها من أمَّةٍ أخرى كما تنتقل الأسر الأوروبية اليوم من مواطنها إلى الموطن الذي تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدَّولتين. وعلى هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم سفاؤهم وأكل قويهم ضعيفَهم فقال شيوخهم: "لا نستطيع دفع ذلك إلا أن نملِّك علينا ملكًا تعطيه الشاةُ والبعيرُ، فيأخذ للضعيف من القويِّ يردُّ على المظلوم من الظَّالم، ولا يمكن أن يكون بعض قبائلنا فيأباه الآخرون، ولكنا نأتي تبعًا فيختار لنا" فقصدوه فملك عليهم حِجْرًا أمير كندَة، وهو أبو امرئ القيس الشاعر المشهور.

وعرفوا الحمايات على أنواعها: حماية الإمارة التي تستعين بجيش أجنبيٍّ وحماية الإمارة التي تعتَمِدُ على جيشها، وحماية الإمارة التي تدين لدولةٍ واحدةٍ أو تدين لدولتين، كما حدث ذلك في ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد.

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردَة ورئاسة القبائل المجتمعة إلى نسب واحدٍ، ورئاسة الرُّحَّل الذين يرعون الإبل والشاةَ، ورئاسةَ أهل المدر

الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم إلى موسم آخر.

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها في واضعها وتقتبس منها ما هي في حاجةٍ إليه، ولكنها لم تأخذ بنظام الإمارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من أحداها، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطًا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا، وكنت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التي تقبل إليها حاجَّة أو متاجرة وليست هي من عشائرها التي تقبل منها حكم الشيخ في قبيلته على أية صفة من صفاتها.

فاختارت لها نظامًا فريدًا يوفِّق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها، ولعلَّه أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين، وإنَّما يؤول الرأي الأخير فيه إلى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن في القبيلة، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التي ترضى بالمجاملة وإن لم يكن فيها رضا بالحقيقة، إذ الحقيقة أن المرجع الأخير إلى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء، كلما حزب الأمر وتشبعت الآراء.

ومن زكانة الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الرئاسة القرشية التي يدين بها حجاج البيت الحرام وقصَّاد مكة من الحضر والبادية، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة.

فحفظوا مناسك الكعبة، وجعلوا أسواقهم معرضا للبلاغة الشعرية والخطب المرويَّة وتعاهَدُوا على ضمانِ الثقة بالتجارةِ كلَّما غدر غادر بذمتها، أو اعتدى معتد على حقوقها.

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسبَ أقدارهم ومزاياهم، فانتهى الشرف إلى عشرة بطون وهم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم، فكانت لهاشم سقاية الحاج، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال لسلموها إلى قائدهم المختار، وكانت لنوفل الرفادة وهى إعانة الحجاج المنقطعين بالمال، وكانت لعبد الدار السَّدانة والحجاجة واللواء، وكانت لبني أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى في مهمات الأمور، وكانت لبني تيم الديات والمغارم، وكانت لبني مخزوم القبة وهى مجتمع الجيش والأعنة وهى قيادة الفرسان، وكانت لبني عديٍّ السفارة، ولبني جمح الأيسار أو الأزلام، ولبني سهم الحكومة والأموال المحجرة، وظلوا يتولونها جيلًا بعد جيل إلى ظهور الإسلام.

ولم يكن لهذه (الوظائف) الموزعة شأن واحد في جميع الأوقات والأحوال بل كانت تعلو وتهبط على حسب العين الذي يتولاها وعلى حسب القوة التي يكون عليها ببيته عند ولايته إيَّاها، ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به (جبر الخاطر)، والإرضاء وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الإدارية الثانوية في حكوماتنا الحاضرة، ولم نجد بينها (سلطات)، فعالية خليقة أن تتعاقب مع الزمن

غير ثلاث متفرقات، وهى السلطة الروحية لهاشم وعبد الدَّار، والسلطة السياسيَّة لأمية، والسلطة العسكرية لمخزوم.

من بني مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد – بطل هذا الكتاب – وكانت نشأة في أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها، فلم يكن من أبوته أو عمومته إلا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية.

كان جده المغير بن عبد الله، الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المغيري تشرُّفًا بالانتساب إلى الفرع الذي أناف على الأصول.

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقَّب بالعدل وبالوحيد، لأنَّه كان يكسو الكعبة وحدَهُ سنةً وتكسوها قريش كلُّها كسوة مثلها سنة أخرى.

وكان عمه هشام قائد بني مخزوم في حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام، ولم تقم سوقًا بمكة ثلاثا لحزنها عليه.

وكان عمُّه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه، له بيت للضيافة يأوي إليه من شاء بغير استئذان.

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذي أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة كما أشار عليه السلام قبل الدعوة الإسلامية.

أما الذي فضَّ النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشرِّ المستطير فهو عمٌّ آخرٌ من أعمامه، وهو أبو أمية بن المغير الملقَّب بزاد الراكب كما جاء في بعض الروايات. فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم إلى أوَّل داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر إلى مكانه، فارتضوا مشورته وتمَّ صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل إهلالها على العالم بسنين، ولقب أبو أميَّة زاد الراكب لأنَّه كان يكفي أصحابه في السفر مؤونَتهم فلا يتزوَّدون بزادٍ.

ويظهر أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها، ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بن هاشم وبني أمية وبني عبد الدار، وهم ثلاثة بطون قوية في جدٍّ أحدٍ أقربَ من الجدِّ الذي يجمعهم ببني مخزوم، وهو مرة بن كعب بن لؤيٍّ بن غالب ابن فهر جدّ قريش أجمعين.

وقد تبنيت رجاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الإسلام وبعده. فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليماني، واشتركت قريش كلها في بناء بقية الأركان.

وكان لبني مخزوم وحدهم في وقع بدر ثلاثون فرسًا من مائة فرس لقريش كلِّها ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقالٍ من الذهب غير الأزواد والأمداد.

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على شرف العزة، وأن يحوزوا كلَّ ما حازوه من الرِّجال والأموال ثمَّ تشيل كفتهم مرجوحةً في ميزان الفخار.

ولا جرم يأخذون الأمر للأنفة والحنزوانة بينهم وبين بني عبد منافٍ حين تظهر النبوة في هؤلاء ولا تظهر فيهم.

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل: "تنازعنا نحن وبنو عبد منافٍ: أطعموا فأطعمنا، حملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحازينا على الراكب وكنا كفرسي رهانٍ، قالوا منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء..... فمتى ندرك هذه؟".

وإنَّما قال أبو جهل: "بنو عبد مناف" ذهابا إلى الجد الذي يجمع هاشما وأميَّة وعبد الدار، كأنَّه يستعلي في كبريائه أن ينافس هاشمًا وحدها دون أن يصعد إلى أبيها الذي يجمع بينها وبين غيرها.

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه أحقُّ الناس بالنبوة والقرآن، ويقول: "أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟" ففي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ونحن نعلم الآن أيَّ عقبةٍ كانت هذه الحنزوانة المخزومية في طريق الإسلام إذ نرجع إلى الآيات التي نزلت في رؤسائهم ووصفَتْ ما كان من عنادهم وعتادهم، وما كانوا يقبلون دعوة الدِّين الجديد بدعواهم في آبائهم وأجدادهم، فلم ينزل في رؤساء قبيلة مثلَ ما نزَلَ في رؤساء هذه القبيلة، ولم تتمثَّل منعةُ قومٍ كما تمثَّلت منعتهم في ردود القرآنِ على

أقوالهم، وهى أقوى ردودٍ عرفت في السور المكية الأولى، على ما جاء في الآيات الكثير من سورة "ن" وسورة المدثر وسورة الكافرون، عدا إشارات أخرى في سورة الحجر وعبس وتولى.

وكل أولئك فحواه شيء واحد، وهو أن بني مخزوم باؤوا بأسباب المحافظة على القديم جميعا حين تصدى الإسلام لتبديل ذلك القديم، فهم أول من يصاب هذه الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها، ومن ثم كانت المصاولة بين الإسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذي انتهى إليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان.

والناس يختلفون في تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون في تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض، إن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحسن والرديء، ويأخذ كل منه على حسب مأتاه ومورده، وحسب ما هو مستعدٌّ له وقادِرٌ عليه.

فإذا قيل سَيِّد من ساداتِ قريش أو نموذج من نماذج القرشيَّة الجاهلية جاز لنا أن نتمثَّله على ألوانٍ كثيرةٍ لا على لونٍ واحدٍ، وجاز أن يكون هذا السيد هي خير الساداتِ من طبقته أو شرِّهم وشرّ أهل زمانه من جميع الطبقات.

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التي تشيع في هؤلاء السادات بغير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة في الشذوذ والاستثناء.

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية وتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام في علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس والأيام.

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسة والعسكرية كما وصلت إليه من تراث الأقدمين من عرب وعجم، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة، في غزواتها أو مواقف دفاعها، كما كان خالد بن الوليد.

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة الاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التي كان يستجيزونها ولا يتحرجون منها، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار.

وقد وجد في أسرة خالد من يكثر من الإقراض بالربا ومن يرى في أموال الربا شيئًا من الدَّنس يقاربه في أحوال ويستعبده في أحوال أخرى.

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقاضها حتى أسلم وأسلم المدينون، فترك الرِّبا من بعدها واكتفى برأس المال عملًا بالقرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

وكذلك وجد في أسرته من نظره الكعبة عن أموال الربا وما شابها فقال لقومه: "يا معشر قريش ! لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا لا يدخل فيه مهر بغيٍّ ولا بيع ربًا ولا مظلمةِ أحدٍ".

وكلهم قرشيٌّ جاهليٌّ من طبقة السَّادة وأصحاب المال.

فحين نقول أن خالدًا كان مثل طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يجب بنا أن نتجه إلى تلك الخلائق الوسطى ونتقرب من نماذجها المشتركة التي لا غلو فيها من هنا أو هناك، حتى نرى دلائل الزيادة في خليقته من تلك الخلائق، فذاك إذن خاصته التي يتميز بها بين قرائنه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الإجمال.

ولا يتمُّ الكلام على تراث ابن مخزوم حتى نضيف إلى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها في كلِّ مجتمع إنساني وليس شأنها بالقليل في حياة خالدٍ على التخصيص.

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالها مشهورة بجمالِ النساءِ بين الحواضر العربية، وبقيت لها هذه الشهرة إلى ما بعد قيام الدولة العباسية، إذ كان يقال لأبي العباس السفاح: إن المخزوميَّات رياحين العرب وعندك منهم يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين.

ولا بدعَ يكون هذا لأنَّها القبيلة التي نبغ منها خالد بن الوليد وعمر ابن أبى ربيعة.

فقديمًا كانت الفروسيَّة والغزل والمرأة بيئةً واحدةً تتعاون فيها البطولة والشاعريَّة والجمال.

وصفوة هذا جميعه أنَّ خالد بن الوليد قد دخل الإسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهلية، فصنع للإسلام وصنع الإسلام له الأعاجيب، وكان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين.

obeikandl.com